الكذبة

للكاتب الروسى
ليونيد أندريف
(١٨٧١-١٩١٩)
ترجمة : ابراهيم الصيرفى

ـ تكذبين • أعلم أنك تكذبين !

ـ لماذا تصرخ هـــكذا • ألا بد أن يسمعنا الناس ؟

ها هى تكذب مـرة أخـرى • أنا لم أصرخ ، كنت أتكلم بمنتهى الهـــدوء والرقة • أمسكت بيدها وكلتها بهدوء ورقة • كان لكلمة « الكذبة » السـامة وقع حفيف الثعبان •

وظلت تقول لى : « أحبك • صدقنى» وأضافت بعد أن قبلتنى «أتقنعك هذه ؟ » لكنها انفلتت منى عند مـا أردت أن أحتويها بين ذراعى • خرجت من الممر المظلم الى قـاعة الرقص حيث قاربت الحفلة نهايتها • وتبعتها • لم أكن أعلم بتلك الحفلة ولا موعدها • ومن أين لى أن أعلم ؟ هى التى أخبرتنى أن آتى ، وقد جئت فرأيت أزواجا من الشـبان والشابات يتراقصون طول الليل • لم يأت الى أحد ، ولا تحدث الى انسان • كنت غريبا بين الجميع • وجلست فى ركن بجوار الموسيقيين • وفى مواجهتى فم نفير نحاس ضخم به سـجين يصرخ فى وجهى لحظة ويقهقه أخرى بصـوت أبح متهز « ها ، ها ، ها ! » •

ومن أن لآخر تتهادى الى سـحابة عطرة بيضـاء • انها هى حبيبتى • ولا أدرى كيف تأتى لها أن تداعبنى دون أن يلحظها الآخرون ، ففى لحظة وجيزة تضغط بكتفها كتفى ، وفى لحظة أخرى أخفض عينى حتى أكاد أرى عنقها الأبيض وفراكها القصير • وعندما رفعت وجهى رأيت جانب وجه ساكن صارم أبيض ، كوجه ملاك جلس يتأمل فـوق قبور المنسيين • رأيت عينيها ، كانتـا واسـعتين ، تنهلان نورا ، جميلتين ، هادئتين • وأشرق ناظراها الاسودان ، تحيط بهما دائرتان زرقاوان • وكلمـا نظرت فيها وجدتهما كما هما ، أسودان عميقا لا يسبر لهما غور • لعلى لم أنظر فيهمـا الا لفترة وجيزة قدر ما يحتمل نبض قلبى • على أنى لم أحس قط فى خوف وعمق بمغزى اللا نهاية ولم أعرف أبدا مدى قدرة سلطانهـا الا فى تلك اللحظـات • أحس فى خوف وألم أن حياتى جميعا ذابت فى عينيها كشعاعة رقيقة من نور ، حتى أصبحت غريبـا على نفسى ، فارغا ، صامتا •• بل ميتا ولكنها انفلتت منى وتركتنى وحيدا • أخذت حياتى معها • وراحت ترقص مع رجل جميل وسيم فاره • ورحت أدرس كل تفاصيله • شكل حذائه ، سـعة ما بين كتفيه الشامختين ، تموج خصلة مبعثرة من شعره • واذ يمسح بى الحائط فى نظرة لا مبالية ولا ناظرة ، متى أغدو

تافها مسطحا أمام تلك العين ، كالحائط ذاته ·

وتقدمت منها عند اطفاء المصابيح قائلا : آن أن نرحل · وستأتين معى ·

وأجابتنى فى دهشة : ولكنى ذاهبة معه ·

وأشارت الى الغريب الوسيم الفاره الذى لم يكلف نفسه عناء الالتفات الينا · وأخذتنى الى الغرفة الفارغة وقبلتنى ·

وقلت لها فى رقة وهدوء : «تكذبين»

وأجابتنى : تعال غدا · سنلتقى غدا لا بد أن تأتى ·

وفى طريقى الى بيتى كان الصباح البارد الأخضر يظل على الأسطح العالية لم يكن فى الطريق كله سوانا ، أنا وشبح · كان يجلس منكمشا على نفسه يخفى وجهه من لسع برودة الريح · وكنت أنا أيضا أجلس من خلفه منكمشا على نفسى مخفيا وجهى جميعه عدا عينى ·· كانت للشبح أفكاره ولى أفكارى ؛ ووراء تلك الحوائط الصم آلاف من الناس ينامون ، لهؤلاء أيضا أحلامهم ولهم أفكارهم · كنت أنكر فيها وكيف كذبت ؛ وفكرت فى الموت، وبدالى أن تلك الجدران ، وقد خلعت عليها أضواء الصباح من نورها ، قد رأتنى ميتا ، وأن هذا سر برودتها ولم يتأت لى أن أعرف فيم كان يفكر الشبح ، كما لم يتأت لى أن أعرف فيم كان يحلم هؤلاء المختبئون وراء الجدران· وهم أيضا لم يتأت لهم أن يعرفوا فيم أفكر ، وفيم أحلم ·

ظللت أسير عبر الشوارع الطويلة المستقيمة حتى غمر الضوء كل ما حولى وغدا كل شىء أبيض ، متحركا · وتهادت الى سحابة عطرة بيضاء ، وضجت بأذنى قهقهة سجين « ها ، ها ، ها ! » ·

كانت تكذب · لم تأت ، وعبثا طال انتظارى · وهبطت من السماء القاتمة قطعة من الظلام معتمة ، باردة ، قاسية ، مطبقة · وأنا لا أعلم متى يتحول الشفق الى مساء والمساء الى ليل دامس ، كنت أفكر فيه ليلا طويلا متصلا واحدا · كنت دائما أتنقل جيئة وذهابا · نفس الخطى المنتظمة الوئيرة ؛ خطى الانتظار · جيئة وذهابا · لم أقترب كثيرا من البيت الشامخ الذى تقطن فيه حبيبتى ولا دنوت من باب واجهته الزجاجى ، الذى بدا لى ، من انعكاس ظل شراعته الحديدية عليه ، أصفر · كنت دائما فى الجانب الآخر ، أقطع الطريق جيئة وذهابا · وفى كل مرة أواجه فيها الباب الزجاجى لا أستطيع أبدا أن ألفت عينى بعيدا عنه · وفى كل مرة ابتعد فيها اتوقف مرات كثيرة لألتفت اليه · وبدت قطع الثلوج ابرا حادة تخز وجهى ، وتظل فى طريقها نافذة مخترقة الى أن تصل قلبى فتعتصره باللهفة المضنية وعذاب الترقب اليائس · كانت الريح الباردة تهب من الشمال الى الجنوب المعتم ، وتصفر ، وترتطم بالأسطح التى تراكمت عليها الثلوج لتنحرف منها هابطة لتلسع وجهى بندف الثلوج الصغيرة الحادة فتحدث ما يشبه صوت الرمال تسفيها الريح على زجاج المصابيح فى الشوارع المهجورة ، اذ ارتعش الشعاع الأصفر الوحيد من قسوة البرد ومال

تحت وطأته · وأسفت لهذا الشعاع الأصفر الحابس فى وحدته ، لا يعيش الا فى الليل ، وظننت ان الحياة سرعان ما تتوقف فى ذلك الطريق ، فهمت أن أبادر بالفرار ، ولم تبق الا ندف الثلوج تتطاير عبر الفراغ والا الشعاع الأصفر الحابى يرتعد وينحنى فى وحدة وبرودة·

انتظرتها ، ولم تأت · وبدا لى ان الشعاع الاصفر فى وحدته وأنا شبيهان، لولا أن مصباحى لم يكن قد فرغ بعد من زيته · ومن حين لآخر كان بعض العابرين يمرون بالمكان الذى أذرعه بخطاى·كانوا يظهرون خلفى فى صمت، ضخاما معتمين·ثم يمرون بى ثم يختفون· فجأة كاشباح رمادية وراء ركن لبيت بنى أبيض · ثم يعودون الى الظهور مرة أخرى من وراء الركن مقبلين على · ثم يتجاوزوننى ليذوبوا فى بطء فى مكان رمادى بعيد تملؤه ثلوج تتحرك فى صمت · كانوا جميعا يشبهوننى ، بملابسهم الثقيلة ، بصمتهم ، بأشكالهم غير المحددة · وظننت ان كثيرا ممن يتجمدون يمشون مثلى جيئة وذهابا ، وانهم ينتظرون ويرتعدون فى صمت ، مثلى ، وانهم يجترون أفكارهم الحزينة المبهمة ·

انتظرتها ، ولم تأت · ولم أدر لماذا لم أصرخ ولم أبك ألما · ولم أدر لماذا كنت أضحك ، لماذا كنت سعيدا · وضممت أصابعى كأنها مخالب، وخيل لى أنى أقبض بها فى شدة على كائن صغير سام ، الحية ، الكذبة · وتلتف الحية حول ذراعى وتلدغ قلبى · ويبدأ سمها يسرى · كان كل ما حولى كذبة · اختفت الحدود بين المستقبل والحاضر ، وبين الحاضر والماضى · اختفت الحدود بين الزمن الذى لم أكن قد وجدت فيه بعد والزمن الذى بدأت أحيا فيه · واعتقدت انى كنت أحيا منذ الأزل · أو انى لم أوجد أبدا · كانت حبيبتى تسيطر على دائما · من قبل أن أحيا وبعد أن وجدت · وكان غريبا على أن أظن أن لها اسما أو جسما ، وان لوجودها بداية ونهاية · كانت بغير اسم ، لكنها كانت المرأة التى تكذب دائما ، والتى تدفعك الى انتظارها ثم لا تأتى أبدا · ولا أدرى لماذا كان ماكان، غير أنى ضحكت واخترقت ابر حادة قلبى ، وقهقه فى أذنى سجين « ها ، ها ، ها ! »

وفتحت عينى على نوافذ البيت الكبير مضاءة ، تتحدث فى هدوء بألسنتها الحمراء والزرقاء · تقول لى :

« انها تخدعك الآن · فى هذه اللحظة الجميلة الوضيئة الخادعة تصغى الى همسات الغريب الوسيم الفاره ، الذى يحتقرك · وانت فى تجوالك الضال فى انتظار وألم · لو انطلقت اليها وقتلتها ، لصنعت خيرا · تكون قد قتلت الكذبة»·

أطبقت قبضتى فى عنف على السكين التى أمسك بها وأجبت النوافذ ضاحكا: « نعم · أقتلها » وأجابتنى النوافذ فى حزن : « لن تقتلها · أبدا · فالسكين التى تطبق عليها بيدك ليست الا كذبة· كقبلاتها » ·

اختفت كل الظلال الصامتة المنتظرة منذ بعيد · وظللت وحيدا فى تلك البقعة الباردة ·· أنا وشعاع يرتعد من البرد واليأس · وأخذ جرس ساعة ببرج كنيسة غير بعيدة يدق معلنا عن الوقت·

كان صوته المعدنى المرتعش يبكى ، كان يتطاير فى الفضاء ويتوه فى ندف الثلج المدومة المجنـونة • وبدأت أعد الدقات وأضحك• الساعة الثالثة صباحا• كان برج الكنيسة هرما • وكذلك الساعة كانت هرمة • وكثيرا ما كانت دقاتهـا تنفلت من قيودها وتظل تتوالى الى أن يصعد قارع الاجراس العجوز فيوقفهـا بيده • على من كانت تلك الدقات الحزينة الراعشة تكذب ؟ تلك الدقات التى أطبق عليها الظلام القاتم البارد وخنقها ! يالها من كذبة تافهة •• مسكينة •• حمقاء !

وانصفق الباب الزجاجى عند الدقة الاخيرة المختصرة من ساعة الكنيسة • وخرج الرجل الوسيم الفاره • لم أر الا ظهره ، ولكنى عرفته • ورغم انى لم أره الا منذ أمس بكبريائه وشموخه الا انه اليوم كان أكثر شموخا وكبرياء ، كان أكثر اعتدادا ومرحا • أنا أيضا طالمـا غادرت هذا البيت على تلك الحالة • انها الطريقة التى يمشى بهـا من قبلته شفاء أنثوية كاذبة •

صرخت وتوعدت وصرخت على أسنانى وقلت لها :

« قولى الحقيقة ! »

وبوجه فى برودة الثـلج وحاجبين ارتفعا دهشة ، تشع من تحتهما دائمـا عينان مبهمـان لا يسبر لهما غور •• أجابتنى : « وهل كذبت عليك ؟ »

هى تعلم أنى لاأستطيع اثبات كذبتها وان كل اثر لأفكارى المحتشدة الشاكة لا تلبث أن تزول لدى أول كلمة تصدر من فمها • لدى أول كذبة • وانتظرت الكلمة ، وخرجت من فمهـا • كانت تبرق ، فى ظاهرها ، بنـور الحقيقة ، وكانت فى أعماقها قاتمة : « أحبـك ! أنا دائما لك » •

كنا بعيدين عن المدينة وكانت الحقول المغطاة بالثـلوج تظهر من خلال النوافذ المعتمة • كان الظلام يحيط بها ، من فوقها ومن كل جوانبهـا ، ظلام كثيف مقبض صامت ، ولكنها كانت رغم هـذا تشع بضوئهـا المختزن كوجه جثة فى الظـلام مصباح وحيد يضىء الغرفة الفسيحة الدافئـة • وعلى لهبه الاحمر تنعكس شحوب الحقول الهامدة •

وقلت لها : « أود أن أعرف الحقيقة ، ولا يعنينى الى أى مـدى هى محزنة • ربما أموت لدى سماعها•• على أن الموت أحب الى من الجهل بها • أحس الخداع فى عينيك • أذكرى الحقيقة وسأمضى بعيدا عنـك ما حييت » • لكنها بقيت صامتة واخترقت بعينيها قلبى•• أعماق قلبى •• وسبرتهـا •• وعرفتهـا • وصرخت بها ! « أجيبى والا قتلتك ! »

وأجابتنى فى برود : « اقتـل •• أحيانا تغدو الحياة أثقل من أن تحتمل• هلانفذت وعيدك ؟ »

وارتميت الى جـوارها على الارض باكيا •• اطلب الرحمة • والحقيقة !

وأجرت أصابعها فى شعرى قائلة : « مسكين ! مسكين ! »

وعدت أضرع اليها أن ترحمنى وأن تذكر الحقيقة •

ونظرت الى جبهتها الناعمة وخيل لى أن الحقيقـة تكمن وراء تلك الصفحة الرقيقة • وانتابتنى رغبة محمومة فى

تمزيق جمجمتها لأرى الحقيقة • وفى جنون راودنى أن أمزق صدرها الابيض بأظافرى ، لأرى ، ولو لمرة واحدة ، قلبا انسانيا عاريا • كانت ذبالة المصباح الصفراء تخبو وشيكا فى صمت ، وامتدت الجدران الداكنة موغلة فى الظلام • كان الجو حزينا جدا •• موحشا جدا •• مخيفا جدا •

وقالت : « مسكين ! »

وفى شهقات متلاحقة سريعة حادة •• مفاجئة •• سقط اللهب ثم انقلب الى الزرقة •• ثم انتهى • وأحاط بنا الظلام • لم أتمكن من رؤية وجهها ولا عينيها• كانت زراعاهاتحتضنان رأسى• لم أعد أحس بالكذبة وأغلقت عينى • لم أفكر ولم أحى • كنت فقط أمتص بروحى •• بكيانى لمسات يديها • وبدت لى صادقة • وفى الظلام ترامى الىصوتها الهامس خائفا غريبا : « ضمنى اليك •• انى خائفة ! » •

ويغيب الهمس ليطبق الصمت •• ويعود الهمس الخافت فى خوف •

« أتريد الحقيقة ؟ فهل أعرفها أنا ؟ لكم أود أن أعرفها ! ضمنى اليك • احمنى ! يا للرهبة ! » •

وفتحت عينى • كان ظلام الغرفة الشاحب قد فر هاربا من النوافذ الكبيرة ، متجمعا على الجدران ، مختبئا فى الاركان • ومن خلال النوافذ أطل شىء كبير ناصع البياض • يبدو أن عينى ميت كانت تتطلع الينا •• كان كائناما يطوينا فى قبضته المتجمدة • والتصقنا أحدنا بالآخر ، فى شدة • كنا نرتعد وهمست « اوه ! يا للرهبة ! »

قتلتها :

قتلتها ، وضعت قدمى فوق جثتها وضحكت عندما كانت ملقاة على النافذة كتلة شاحبة محددة • تلك النافذة التى تمتد من تحتها الحقول البيضاء • وقفت فوق جثتها وضحكت • لم تكن قهقهة مجنون • أبدا ! ضحكت لانى كنت أتنفس فى خفة وانتظام • لان صدرى كان يحتوى السعادة فى أعماقه والسلام •• والفراغ • وسقط عن قلبى ما كان يثقله • وانثنيت أتطلع الى العينين الميتتين • عينان واسعتان شفوفتان بالنور ، بقيتا مفتوحتين • كانتا كعين دمية من الشمع • واستطعت أن المسهما باصبعى أن أفتحهما وأغلقهما • لم أعد أخاف لان جنى الكذب والشك لم يعد يسكن تلك العينين السوداوين اللتين لا تسبران •• اللتين كم شربتا فى ظمأ من دمى •

عندما قبضوا على كنت أقهقه • وظن الذين أمسكوا بى أن ما فعلته محزن وفظيع • وانصرفوا عنى متقهقرين فى حقد ، وتقدم منى آخرون • تقدموا منى فى فزع وتوتر وعلى شفاههم كلمات لوم • تقدموا منى فى ثبات • ولكن عندما رأوا نظرة الفرح والبهجة تطل من عينى شحبت وجوههم وارتدوا متقهقرين •

وصاحوا جميعا « مجنون ! » وتبين لى أن هذه الكلمة قد هدأت من روعهم اذ حلت لغزى ، أنا المحب وكيف قتلت حبيبتى ثم لا أزال أقهقه • رجل واحد فقط ، سمين ، أحمر الوجه ، مرح أطلق على صفة أخرى • صفة جعلت الضوء يقيم فى عينى •

قال عنى : «مسكين ! مسكين !» قالها بعطف وبـطء مرارة لانه كان سمينا ومرحا .

وصرخت به : « اسكت ، لا تقل ذلك عنى ! »

ولا أدرى لماذا صرخت فيه . لم أكن أريد أن أقتله ، ولا أن ألمسه . ولكن المحتشدين ممن ظنوا بى الجنون وحسبونى مجرما هالتهم صرختى فانفجروا فى صرخات هلع وفزع دفعت بى أن أقع فى عاصفة من الضحك .

وعندما قادونى خارج الغرفة التى ترقد فيها الجثة . نظرت فى عناد الى الرجل السمين وصرخت فى وجهه « أنا سعيد ! أنا سعيد ! » .

وكانت هذه حقيقة مشاعرى .

***

رأيت فى طفولتى ذات مرة وأنا فى حديقة الحيوانات فهدا ألهب خيالى وأستبد بأفكارى طويلا . لم يكن كغيره من الحيوانات الأخرى . تلك الحيوانات التى تنام فى غباء أو تحملق فى الزائرين بأعين فارغة . كان يمشى فى قفصه من ركن لآخر فى خط مستقيم . وفى خطوات محسوبة بدقة . يستدير فى نفس المكان المعتاد ، يحك فروته الذهبية فى قضبان معينة من القفص دائما . كان يمشى مطاطئا رأسه الضارية ، الصارمة . ينظر الى الخلف دائما . لم يحد عن دورته مرة واحدة . كان الزائرون يحتشدون حول قفصه طوال النهار ، كانوا يتكلمون ويحدثون ضجيجا . لكنه كان دائما فى مسيرته وما التفت مرة واحدة الى المحملقين فيه . كانت قلة من الزائرين تضحك لمشهده أما البقية فكانت تنظر اليه فى اهتمام وربما فى وجوم . الى الصورة الحية من القتامة واليأس . ثم تنصرف عنه فى زفرة حرى . ينصرفون ثم ما يلبثون أن يعودوا مرة أخرى لالقاء نظرة مستفسرة ، نظرة لاتستطيع ادراك شىء ، ثم يزفرون كان شيئا مشتركا يجمع بينهم . بين هؤلاء الاحرار والوحش الحبيس . ومهما قال الناس أو قالت الكتب عن الأبدية بعد ذلك . فقد عرفت الأبدية بكل عذاباتها من هذا الوحش .

غدوت كهذا الفهد فى زنزانتى الحجرية رحت أمشى فيها وأفكر . أمشى على خط واحد . أعبر الزنانزة من ركن لآخر . وبعيدا بعيدا تجرى أفكارى عبر خط ضيق قصير . أفكار ثقيلة يخيل الى معها أنى غدوت بلا رأس ، وانما أحمل فوق كاهلى عالما بأسره . أفكار تتضمن كلمة واحدة . ولكن أية كلمة قاتلة معذبة كبيرة . تلك هى « الكذبة » .

الفحيح مرة أخرى ، يزحف من كل الاركان ليلتف مطوقا روحى ، على أنه لم يعد ثعبانا صغيرا ، لقد نما .. نما .. غدا حية لامعة ، وحشية ، ضخمة . لدغتنى وطوقتنى بحلقات من حديد . وعندما فتحت فمى صارخا من الألم خرج صوت كفحيح الحية ، مصفرا ، مثيرا وكان صدرى جميعه قد غص بحشد من الحيات : « الكذبات »

وسرت بين أفكارى وتبدلت أمام عينى أرض الزنزانة السوداء اللامعة ، الى هاوية رمادية ، شفافة ، بلا قاع . ولم

تعد قدماى تشعران بوقعهما على الحجر وخيل الى أنى أسبح فوق ظلام وضباب عال لا يحد • وعندما تخلص صدرى من زفرة الفحيح ، من هناك •• من أعماق صدرى ، خلف ذلك الرداء الرقيق الذى لا يسبر ما وراءه • من هناك ترددت فى بطء أصداء مفزعة • فى بطء شديد وفى هدوء كانما تقطع آلاف السنين • وفى كل لحظة ، وفى كل ذرة من ضباب ، تفقد الاصداء من قوتها شيئا • وأدركت انها فى المنحدر هناك •• فى القاع •• تصفر كالرياح التى تمزق الشجر • وترامت الى أذنى كأنباء السوء فى كلمة واحدة مقتضبة : « كذبة » •

أثارتنى تلك الهمسة الخسيسة ، فضربت الأرض بقدمى صارخا « لا •• لا كذبة بعد •• قد قتلتها ! »

وابتعدت عن عمد ، لانى أعلم أنها ستجيب • وفى هدوء • وفى بطء ترامت الى الاجابة من هوة عميقة بلا قاع : « كذبة » •

ها أنت ترى كيف تعقد الامر • لقد ارتكبت خطأ متعمدا • لقد قتلت المرأة •• وخلدت الكذبة ! لا تقتل امرأة، ولا ضارعا ، متألما ، ظانا انك ستنزع الحقيقة من روحها •

هكذا كنت أفكر فى زنزانتى •• فى مسيرى من ركن لآخر •

مظلم ذلك المكان الذى حملت اليه حبيبتى الصدق والكذب •• وانى لماض اليه • ولسعف القاها فوق عرش الشيطان ، ولسوف آخر راكعا على ركبتى قائلا لها وسط بكائى : « أرينى الحقيقة ! » •

يا الهى ! لقد بقيت الكذبة • الكذبة خالدة • أحسها فى كل ذرة من ذرات الهواء ، وعندما أتنفس يتسرب الفحيح مع الهواء الى صدرى يمزقه • يمزقه !

آه ! أى جنون يترصد من يبغى الحقيقة !

لا نجاة ! لا نجاة !